العوامل الجغرافية المؤثرة فى نشأة وتطور مملكة الفونج (910هـ – 1237هـ - 1504م – 1821م).

د. عثمان عبدالله محمد الزبير

قسم الجغرافيا – كلية التربية
جامعة الزعيم الأزهري

المستخلص:

تلعب العوامل الجغرافية دورا كبيرا فى نشأة وتطور الدول والممالك قديما وحديثا لذلك تبحث الجغرافية السياسية فى دراسة علاقة الانسان بالبيئة وتهتم بدراسة الوحدات السياسية فوق سطح الارض اى دراسة الدولة كوحدة لها شخصية مميزة تتأثر بظروفها الداخلية من موارد وسكان ومظاهر سطح كما تتأثر وتؤثر على ما يحيط بها من جيران فى منظومة متكاملة تهدف الى سد حاجات السكان او المساهمة فى نشر الرفاهية لسكانها وسكان الاقليم المجاورة. وهنالك العديد من العوامل الجغرافية التى ساهمت فى فى نشاة ونطور مملكة الفونج التى حكمت اجزاء واسعة من السودان الحالى فى الفترة من (910هـ – 1237هـ . 1504م – 1821م). وقامت بانجازات عديدة رسخت الاسلام فى اواسط السودان. وتهدف هذة الورقة لمناقشة أهم العوامل الجغرافية المؤثرة فى نشأة وتطور مملكة الفونج .

الكلمات المفتاحية : العوامل الجغرافية ، سنار ، مملكة الفونج ،الحكم ، الإدارة

Geographical factors affecting the emergence and development of the Fung Kingdom (910 AH - 1237 AH. 1504 AD - 1821 AD).

Dr. Osman Abdullah Mohammed Al-Zubair

Abstract:

Geographical factors play a major role in the emergence and development of states and kingdoms, ancient and modern. Therefore, geopolitics studies the relationship of man to the environment and is interested in studying the political units above the surface of the earth, ie the study of the state as a unit that has a distinct personality affected by its internal conditions of resources, population and surface manifestations as it affects and affects what surrounds it. From neighbors in an integrated system that aims to meet the needs of the population or contribute to spreading the well-being of its residents and the residents of the neighboring region. There are many geographical factors that contributed to the emergence and development of the Funj Kingdom, which ruled large parts of the present Sudan in the period from (910 AH - 1237 AH. 1504 AD - 1821 AD). And it has made many achievements that established Islam in central Sudan. This paper aims to discuss the most important geographical factors affecting the emergence and development of the Fung Kingdom.

Keywords: geographical factors, Sennar, the Funj kingdom, governance, administration

مقدمة:

الجغرافيا السياسية أحد فروع الجغرافيا البشرية التي تبحث في دراسة العلاقة بين الإنسان والبيئة التي نعيش فيها, وتهتم بدراسة الوحدة (الوحدات) السياسية فوق سطح الأرض, أي دراسة الدول كوحدة لها شخصية مميزة تتأثر بظروفهاالداخلية من موارد وسكان ومظاهر سطح الأرض, كما تتأثر وتوثر فيما يحيط بها من جيران في منظومة متكاملة تهدف إلي سد حاجات السكان أو المساهمة في نشر الرفاهية لسكانها وسكان الأقاليم المجاورة. وضُعت الاسس الأولي للنظام السياسي والإداري الذي سارت عليه دولة الفونج الإسلامية في الإتفاق الذي تم بين عمارة دنقس وعبدالله جماع ، وبهذا الاتفاق تم ترتيب نظام الحكم والإدارة،. حيث اختار مؤسسا الدولة النظام الملكي الوراثي أسلوبا لممارسة الحكم والإدارة . وبموجب هذا النظام أصبح عمارة دنقس زعيم الفونج ملكا علي الدولة يمارس سلطاته من عاصمته التي اختطها ، وهي مدينة سنار ، بينما يكون عبدالله جماع وقومه نواباً عنهم في إدارة الأقاليم التابعة لهم في القسم الشمالي من الدولة ، وعاصمتهم قري. ولم يكن النظام الملكي لدولة الفونج الإسلامية ، نظاما مستبدا كما يظهر للوهلة الاولي ، وإنما كان يأخذ بالشوري ، فقد كان للدولة مجلس شوري يساعد في اختيار الحكام وتسيير شئون الدولة ، وكذلك يقوم بعزل السلطان إذا اقترف مايستحق العزل. وقد أخذت الدولة بنظام الحكم اللامركزي ، لأنه يناسب طبيعة النظام القبلي الذي ينزع إلي الحرية ، وكان سائدا في الدولة ، كما يناسب ايضا

طبيعة التحالف بين الفونج والعبدلاب ، الذي يعطي العبدلاب قدرا كبيرا من الحرية والاستقلال الذاتي في ظل التبعية لملوك سنار داخل الدولة الواحدة . كما أن النظام اللامركزي يناسب أيضا ما يتطلبه اتساع بقاع السودان ، من توفر قدر كبير من الاستقلال والحرية والحكم اللامركزي . ويتضح لنا أن نظام اللامركزية كان النظام الامثل والاوفق لمقابلة ظروف السودان في تلك المرحلة .

مشكلة البحث:

تدور مشكلة البحث حول السوال التالي:

ماهى أهم العوامل الجغرافية المؤثرةفنشأةوتطور مملكة الفونج وماهى فكرة الدولة التى ساعدة على قيام المملكة .

أهمية البحث:

تنبع أهميةالبحثفي :فى معرفة وفهم دور العوامل الجغرافية فى قوة الدولة

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى الآتي:

1. مناقشة نشأة وتطور المملكة السنارية.
2. تحليل العوامل الجغرافية التى ساعدت على نشأة وتطور المملكة السنارية.
3. التعرف على فكرة الدولة ومصارها ودورها فى قوة المملكةالسنارية او مملكة الفونج .

الفرضيات:

1. تعّد العوامل الجغرافية (الطبيعية والبشرية) من أهم العوامل التى ساعدت على نشأة وتطور المملكة السنارية.
2. فكرة الولة المتمثلة فى الاسلام لعبة دور كبير فى قوة الدولة (مملكة الفونج) وهى نتاج مصادر داخلية وخارجية.

مناهج البحث :

أستخدم البحث مناهج متنوعة تتلخص في:

1. المنهج التاريخي: تم فيه تتبع نشأة وتطور المملكةالسنارية .
2. المنهج الوصفي: الذي استخدم في تحليل العوامل الجغرافية التي ساعدت على نشأة وتطور المملكةالسنارية.

نشأة المملكة السنارية:

نظمت اتفاقية البقط(652م) العلاقة بين مصر وبلاد النوبة وحصلت موجات من الهجرة العربية في القرن التاسع الميلادي وبلغت ذروتها في القرن الرابع عشر بسبب الاضطرابات في الجزيرة العربية وبلاد الشام وضيق المراعي في شمال السودان طلب الشيخ عبدالله جماع من كل القبائل العربية التي جمعها في وادي المحالفة بحلفالأداء القسم والتحرك إلى وسط السودان طلباً للماء والكلأ[1].

أمام تكاثر القبائل العربية ببلاد النوبة شمال السودان وحالة الفوضى التي كانت عليها المنطقة وصراعات الملوك حول السلطة وغزوات سلاطين مصر سقطت الدولة المسيحية في دنقلا في بداية القرن الرابع عشر الميلادي وأنفتح الباب على مصراعيه للقبائل العربية فتدفقت جنوباً

وأخذوا يكونون بيئاتهم ومجتمعاتهم القبلية هكذا سقطت مملكة المغرة المسيحية في دنقلا وبقية مملكة علوه المسيحية في سوبا تنتظر مصيرها المحتوم والقبائل العربية تتجمع وتتوحد(2)

اتفق عبدالله جماع مع أبناء عمه بإزالة ملك هذا الظالم وعقد إجماع الجميع مع سائر العرب وعلى هذا الأمر عاهدوه على حرب ملك العنج ولقب عبد الله بجماع لأنه جمع القبائل على هذه الحرب يروى أن العهد في منطقة الجديد التي تقع غرب النيل وسوبا عاصمة علوة المسيحية شرقه التي تبعد عن الجديد22 كلم ربما يبدو أن التحالف في منطقة الجديد بعد سقوط علوة وتحالفهم في هذه المرة الثانية تحمل مفاهيم وقيماً وأنماطاً جديدة للحياة ، لتنصيب عبدالله جماع قائداً لهم وتجنب الصراع والمطامع في هذه السهول الفسيحة ونشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية بيسر، وبسط قيم التسامح والكرم والنجدة والوفاء والأخوة الصادقة مع الوطنيين.

بعد سقوط علوة تحرك العرب بزعامة عبد الله جماع حول النيل الأزرق إلى أن وصلوا أربجي التي تعني باللغة النوبية مكان العرب كما أن هنالك اكتشاف آثار نوبية بالقرب من موقع أربجي وهذا يوضح المنطقة مأهولة بالسكان منذ زمن بعيد وأن معين ود حجازي شيد بها المسجد في موقع تجمع العرب عام 1475م بالقرب من الموقع الذي يسكنه السكان الأصليون وأن العبدلاب جعلوا أربجي مركزاً إدارياً يهتم بالجزء الجنوبي من مشيختهم(3) وهذا يوضح وفود مجموعات كبيرة من العرب على القبائل النوبية المنتشرة أصلاً بين النيل الأزرق والأبيض في منطقة أربجي.

أن الفونج بقيادة عمارة دنقس موجودون في جزيرة سنار واختلطوا بالقبائل النوبية الموجودة بالمنطقة وربما يكون وجدوهم أقدم من العبدلاب لكي لا يتم التصادم بين القوتين مرة أخرى بعد ما انتصر عمارة دنقس على عبد الله جماع في مدبنةاربجي تم التحالف بينهم في أول اتحاد بين العرب والفونج عام)1504 م) ببداية قيام مملكة موحدة بينهم سوف يشرح لاحقاً.

أهم العوامل الجغرافية التي ساهمت في نشأة وتطور مملكة الفونج:

1. فكرة الدولة:

لكي تحافظ الدولة علي وجودها يجب أن تقوم علي فكرة معينة للتغلب علي عدم الانسجام والانقسام, وفكرة الدولة تساعد علي كسب ولاء جميع الفئات. والدولة التي تفقد فكرة وجودهاأو تبنت فكرة أخرى ليست في صالح المجتمع قد تتعرض لخطر التفكك الداخلي. يري جيمس أن الدول البعيدة عن الديمقراطية تتصف بعدم نضوج فكرة, لذلك حفظ النظام في تلك الدول يأتي عن طريق استعمال القوة والعنف, أما الدول الديمقراطية ففكرة الدولة فيها راسخة تستطيع تلك الدول مقاومة أزماتها الداخلية والخارجية وحفظ نظامها علي أساس قناعة ومناصرة السكان لها .فكرة الدولة إما أن تأتي من الخارج أو تنشأة وتتولد وتتولد من الداخل أو من مصدر داخلي وخارجي معاً.

كان تاريخ قيام سلطنة الفونج هوالوقت الحقيقي الذي بدأ فيه انتشارالإسلام فى السودان بصورة اكبر من ذي قبل ، وقد تدفقت الهجرات العربية الى السودان من مصر بنهاية الممالك

المسيحية ، حيث انزاح الستار وانفتح الباب على مصراعيه أمام الهجرات العربية، وقد بذل سلاطين الفونج جهودا جبارة لتمكين الإسلام يساعدهم فى ذلك مشايخ العبدلاب ، فاتصلت سنار بالعالم الإسلامي عن طريق هجرة العلماء وطلاب الى الأماكن المقدسة عبر البحر الأحمر وميناء سواكن عن طريق قوافل الحج ، كما هاجر عدد من الفقهاء ورجال الدين وطلاب العلم من بلاد الغرب الإفريقي فاستقر بعضهم في سلطنة الفور منذ عهد السلطان سليمان صولونق واحفاده من بعده الذين عملوا على تشجيع العلماء والفقهاء للهجرة إلى دارفور ، فأسسوا المستوطنات الإسلامية التي كان لها دورها الرائد في نشر الإسلام في دارفور وما جاورها. وواصل هؤلاء المهاجرين سيرهم شرقاً مصطحبين قوافل الحج عبر الطريق الغربي إلى الأماكن المقدسة ،فاستقر ببعضهم المقام إما في رحلة الذهاب او الإياب في سلطنة الفونج لما وجدوه من هفاوة واحترام من السلاطين والعامة .

كما اشتهرت مدارس ومؤسسات دينية في سلطنة الفونج تخرج فيها فقهاء وعلماء اثروا الجانب العلمي وصارت حلقاتهم مراكز اشعاع ديني قصده طلاب العلم من مملكة برنو ووداي وباقرمي، فنهلوا من علوم القرآن والتوحيد والتجويد والفقه والتفسير على النهجين المصري والحجازي[4].

تعتبر الدولة السنارية أول دولة إسلامية فى السودان حيث تشير بعض المصادر الى أن اواسط القرن الخامس عشر وجدت بعض المظاهر الدعوية بنواحى النيل الازرق ولا يستبعد أن يكون أحد أحفاد الشيخ غلام الله بن العائد هو من أنشاء المساجد للعبادة والتدريس بحكم إستعداد هذه الاسرة العلمى للتدريس الى جانب ان النفس البشرية غالبا ما تنزع للتفاخر بامجاد الأسلاف الأمر الذى كان يعد دافعاً قويا للأحفاد للمحافظة على هذا الإرث العظيم من خلال التوسع فى نشر العلم والعمل على رعايته وتدل الاحداث اللاحقة الى ان القيام والاهتمام بشان الخلوة ورعايتها وخدمة اهلها من الشرف الذى يتوارث عبر الاجيال [5].

تعزز هذا النشاط الدعوى وتتابع الاهتمام به بصورة كبيرة فى مطلع القرن العاشر وقيام مملكة سنار تبعاً للفلسفة المتعلقة بشئون الحكم والادارة لقادة السلطنة انذاك حيث صار النشاط الدعوى من ضمن اهتمامات السلطة حيث أسهم العلماء فى اثراء النهضة العلمية ومن الاساليب والوسائل التى اتبعها قادة السلطنة فى نشر الاسلام والتى كانت سلمية من خلال إحترام العلماء وتبجيلهم ومن الامثلة الدالة على ذلك ما وجده الشيخ محمود العركى الذى عاصر دولة الفونج فى بداية نشاتها وقد تلقى العلم على شيوخ مصر وعاد وأسس بعض المدارس وهو أول من نشر الوعى بالعلوم الدينية حيث كان على سبيل المثال لا الحصر يحدث ان تطلق المراة وتتزوج من اخر فى نفس اليوم فاعلمهم بالعدة وشروطها وواجباتها بيان اهميتها[6]. وهذا يكشف الضعف وعدم الوعى الدينالذى كان سائداً مما حدا بقادة الفونج استجلاب علماء من الخارج امثال محمود العركى والذى يبدو ان التحصيل العلمى الذى تلقاها اشعره باهمية الخلوة فى الاصلاح ومدى الأثر الذى أوجده فى التعليم والعلم فقرر السعى لانشاء هذه المدارس الدينية لرفع الوعى الدينى والثقافى لقناعته بان اصلاح المجتمع يكون بالدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والخلق

الفاضل اقتداءاً بالمصلحين ، على ضوء هذا الاهتمام اخذت الثقافة الاسلامية فى الإزدهار فى مملكة سنار خاصة فى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) بفضل العلماء الذين ظهروا فى هذه الفترة وكانوا من وراء هذه الصحوة العلمية التى احدثت اثر كبير وقد عدد صاحب الطبقات (ود ضيف الله) جملة منهم حيث اشار لقدوم الشيخ ابراهيم البولاد من مصر ومن ثم الى ديار الشايقية ومن ثم قدوم الشيخ تاج الدين البهارى من بغداد والذى ادخل الطريقة الصوفية فى دار الفونج ثم الشيخ التلمسانى المغربى على يد الشيخ محمد ود عيسى سوار الدهب حيث سلك طريق القوم وعلمه علوم القران وعلم الكلام والتجويد والروايات ونحوها حيث انتشر علم التجويد ومن ثم ظهرت ولاية الشيخ ادريس ود الارباب (رجل العيلفون) ومن ثم قدم الشيخ حسن ود حسونه والشيخ خوجلى ابو الجاز[7].

الحركة العلمية فى ممكلة سنار اخذت فى التطور من خلال محاور عدة تجسدت فى هجرة الطلاب وتنقلهم بين العلماء داخل حدود السلطنة ثم كان العامل الخارجى المتمثل فى الهجرة نحو مصر(الازهر الشريف) حتى أنشئ (رواق السنارية) بمصر وفى ذات الوقت كان يقابل هذه الهجرة وفود من العلماء الى داخل السودان ، واذا علمنا ان تعلم القران وحفظه يمثل القاعدة التى يقوم عليها البناء المعرفى للمسلم فهذا يعنى ان دور الخلوة فى هذا الحراك الدينى والدعوى كان كبيراً الامر الذى يستوجب استدعاء جهود الخلوة وعدم اغفال دورها حال الحديث عن الحركة العلمية والدينية والثقافية من حيث الكسب والانتشار فى العهد السنارى .

2. السكان:

كان عدد سكان سنار في عام 1700 م حوالى100 ألف شخص حسب الرحالة الفرنسي جاك بونس Jacques Ponce وزكر ان المباني الرئيسية في المدينة كانت هي القصر والمسجد والأسواق والمقبرة. كما زار المدينة في سنة 1770 الرحالة الإسكتلندي جيمس بروس في طريقه إلى منابع النيل الأزرق ويرى أنها مدينه كبيره و مخططه.ووصف بعض الرحالة مدينةسنار بأنها كانت مترامية الأطراف تضم عدة مناطق سكنية منتشرة في كافة أنحائها و من مختلف القبائل التيأتتإليها من أجزاء السودان المختلفة. وكان سوق المدينة الكبير على ضفاف النيل، وإلى جانبه سوقين أخرين مما يدلل على كثافة السكان وكثره التبادل الاقتصادي. وكان القصر الرئيسي لحكام الفونج الذي بناه السلطان بادي الثاني (حكم من 1645 - 1681)، يتكون من برج ذو خمسة طوابق مع قاعة كبيرة، وكان محاطاً بسور له تسعة أبواب. فهو ظاهره معماريه متفردهوقد وصف القصر بأنه كان لا بد من أن يترك انطباعاً كبيراً لدى مشاهديه.

ان عمليات التبادل العديدة التي جرت فى المدينة والاتصال بين الثقافات القبلية المختلفة فى مملكة سنار أدت الي درجة عالية من التعايش بين المجموعات في نفس الرقعة الجغرافية، وان الحفاظ على التنوع الثقافي ساعد على تماسك المجتمعوجسر الهوة بين الثقافات وكان وسيلة ضرورية لتعزيز السلام والاستقرار في سياق يتسم بحضور الجانب الثقافي فيه وكان التلاقح بين الثقافات يمثل أفضل ضمان لتحقيق واستمرار السلام فيالدولة. ويلاحظ أن الثقافة تحتل مكان الصدارة في المناقشات

المعاصرة بشأن الهوية والتماسك الاجتماعي وتنمية اقتصاد والتي سبقنا إليها ملوك سنار. وأن احترام تنوع الثقافات، والتسامح، والحوار، والتعاون، في جو من الثقة والتفاهم، هي خير ضمان لتحقيق السلام والأمن فى مجتمع كمجتمع سنار فى تلك الفتره. وقد كان هناك تضامن قائم على الاعتراف بالتنوع الثقافي وعلى الوعي بوحدة الجنس البشري(اسلاميا) وتنمية المبادلات فيما بين الثقافات. ومنذ البداية صاغت العوامل الدينية والجغرافية والاقتصادية في مملكه سنار أنماطحياة مختلفة ثقافيا ولذا أفردت سنار العديد من الاستراتيجيات لحماية تنوعنها الثقافيالذي أصبح عنصرا أساسيا من الجغرافيا السياسية للدولة وركيزة من ركائز التنمية المستدامة فى المملكة لعده قرون وان هذا التعاون بين أجزاءالمملكةالمعتمدة على تواصل الثقافات فى اطار من الاحترام المتبادل وفهم التراث المشترك ، والقانون العام و العلاقات الثقافية بين االاقليم المختلفه افاد كثيرا فى استمرار الدوله وبسط نفوذها . ونسبه لان التعددية الإجتماعية ظاهرة ملازمة للمجتمع البشري منذ عرف المجتمع ظواهر التبادل السلعي والاعتماد على الاخر واهميه التعددية والاقراروالتسليم بعالم متنوع ومختلف وان الاختلافات أوالمتعددات تلعب دورا مهما في الهويات الثقافية والبرامج الاقتصادية والاعتقادات الدينية والتجمعات الأثنية والأنظمة السياسية وغيرها، فلم يعد كافياً تشخيص التعددية وإنما كيفية تجسيدها عملياً بإعتبارها حقيقة واقعية حاضراه كما كانت في الماضي وستكون في المستقبل. ولا تعني الإختلافات أو التعدديات علامات الفشل أو دلائل الخطأ أو عدم القدرة في الوصول الى مجتمع متسامح و متحد. فالتعدد الثقافي عنصر ضروري لترجمة القيمة الموضوعية في الواقعين السياسي والأخلاقي، والسياق ألتعددي الاقتصادي هو حالة أساسية لإحداث الحركية في الأسواق المحلية والعالمية إن معرفتنا للتعددية و التنوع من ناحيةالأهمية و الحقيقة و ضرورة استحقاقاتها ولا يتناقض ذلك مع معتقداتنا الدينية أو الأيديولوجية أو الفكرية والثقافية. وهذا ما يدعونا، إلى ترسيخ المعاني السياسية والاجتماعية للتعددية والتنوع في مختلف الحقول (8) ففى سنار كانت هناك أشكالا متنوعة من التفاهم عبر المكان والزمانمتمثله فى الربط الجغرافي بين الشمال والجنوب و الشرق و الغرب حيث كانت سنار مدينه التبادل الأولى . ويتجلى هذا التنوع في أصالة وتعدد الهويات المميزة للمجموعات والمجتمعات المتنوعة التي تألف منها سكان مملكه سنار.وكان التنوع الثقافي مصدراً للتبادل والتجديد والإبداعالادارى والسياسي . وبهذا المعنى يكون التنوع الثقافي فى سنارالتراث المشترك للمملكة السنارية. ومن هذا المنطلق يجب الاعتراف بالتنوع والتأكيد عليه لصالح الأجيال الحالية والأجيال القادمة. والتعددية والتنوع محركا للنهضة ومؤثر فى التقدم واستمراريةالتنمية في المجتمع وبناءالوحدة الوطنية وحماية للتوحد بمختلف طوائفه وانتماءاته وأن وجود عناصر مخالفة لمثل هذه التوجهات لا يمثل خطراً بوجود التعددية، وإنما يعطي مثلاً على محاسن التعددية ومنافعها. وقيام التعددية كجزء من النظام العام والمنظومة الوطنية، ضمانة لوأد افتعال الحروب الداخلية والفتن الطائفية والسياسية والحزبية فالتعددية ليست حركة في حد ذاتها بل ضرورة لتماسك المجتمع[9].

3. نظام الحكم والإدارة:

أرادت مملكة سنار أن تبني دولة إسلامية قوية فتأثرت بنظام الحكم بالدولة الاسلامية, ونظام الحكم في المملكة السنارية ملوكي ولكنه يقوم على الشورى ويحترم درجات القرابة والسن في العائلة المالكة، فاعتمدت مملكة سنار في مطلع عهدها أيام عمارة على التقاليد القبلية البسيطة فيما يتعلق باتخاذ القرارات فهي تقوم على اتخاذ الرأي مع زعماء القبيلة ومن أهل المكانة والرأي ومن أقارب السلطان وأعوانه المختارين من العسكريين وغيرهم,وعلى الرغم من السلطات الواسعة التي يتمتع بها السلطان يتعرض للعزل إذا أخل بقواعد النظام في الحكم كما حصل للسلطان أونسة وبادي الرابع.أخذت الدولة بنظام الحكم اللامركزي لأنه يناسب طبيعة النظام القبلي، كما يناسب أيضاً طبيعة التحالف بين الفونج والعبدلاب، كما أنه يناسب أيضا اتساع بقاع المملكة(شقير:10) وهذا يؤكد أن هنالك دراية واضحة بالأمور المتعلقة بنظام اللامركزية ونظام منح الصلاحيات وطريقة تنسيق الأعمال في المنظمة الواحدة وفي حل المشكلات الإدارية ويكون برهان ذلك نظام الدولة دام أكثر من ثلاثة قرون. وتتألف مملكة سنار من عدد من الأقاليم الجغرافية الإدارية التي تتمثل في الممالك والمشيخات الإسلامية عبر تطبيق حكم لامركزي وأتبعت سياسات إدارية واستراتيجيات عسكرية واقتصادية واجتماعية ناجحة ازدهرت فيها كل من التجارة البرية والبحرية والصناعات ونشر مبادئ الدين الاسلامي وبناء دولة الاسلام قوية مكنت المملكة من أتحاد قوي بين مؤسسيها دام أكثر من ثلاثة قرون ما كان له أن يتحقق لولا وجود القيادة الراشدة والإدارة الصحيحة التي تعتمد على الشورأ في إدارة الدولة التي انتشرت على مساحة واسعة من الأراضي السودانية في هذه الحقبة التاريخية. وهذا يقودنا إلى أن الحكومة المنظمة والتقسيم الإداري الجغرافي اللامركزي المخطط وهو الذي يشكل مبادئ الإدارة الحديثة لدول العالم المتقدم فهي موجودة في السودان منذ الحضارات القديمة ثم تطورت إلى طريقة أحدث تنظيماً وتخطيطاً في عهد المملكة السنارية ؛ومن أهم ملامح الادارة فى المملكة يمكن تلخيصها فى النقاط التالية:

- نجحت المملكة السنارية أن تشكل إقليماً جغرافياً إدارياً بوصفه منظومة ذات بنية مكانية جميع عناصرها مترابطة بعضها ببعض إدارياً واجتماعياً واقتصادياً بتفاعلها مع الوسط المحيط .
- التقسيم الإقليمي الجغرافي للمملكة السنارية ليس لأهداف معرفية فحسب بل تطويرية ويمثل الهدف الرئيسي تطوير الإدارة المكانية وتطوير التنظيم المكاني للقوة المنتجة، والمجتمع .
- أن إقليم سنار الحيوي هو مركز الثقل الإداري والسياسي والاقتصادي والحضاري للدولة ومنه انطلقت الفكرة الأساسية لنشوء عاصمة الدولة فيه مما أدى الإقليم دورا حيوياً ملموساً في تماسك الدولة واستمراريتها.
- نجحت مملكة سنار إدارياً وسياسياً في استقرار البدو الرحل عبر تسجيل ملكية الأرض مع الاهتمام بأهم المؤثرين اجتماعياً في المجتمع ،مثل رجال الطرق الصوفية وزعماء

القبائل بمنحهم مساحات زراعية كبيرة وإعفائهم من الضرائب للمحافظة على الأمن والحصول على مالية الدولة من الإنتاج الزراعي على حسب ما كان سائد في المجتمع واستفادت منهم كذلك في التعليم وتطبيق القوانين الشرعية والأعرف .

- كانت أهم أسباب الفشل الإداري والسياسي الذي ساهم في نهاية المملكة السنارية ضعف الحكومة المركزية مما ادى الى ضعف الإدارة الداخلية للأقاليم وعدم الرقابة لعدم اتباع الحكام سياسة الذين سبقوهم في الحكم مما أدى عزل وتنصيب السلاطين بصورة متكررة كما ساهم في المؤامرات فيما بينهم وكذلك الحركات الانفصالية والحروب الخارجية وظهور المجاعات وانتشار الأمراض الوبائية بالمملكة.

4. الحدود:

تعتبر مملكة سنار من أكبر وأشهر الممالك الإسلامية فى السودان يؤرخ لها مابين 1505ـــ1821م(11). تسمي مملكة الفونج ، كما تسمى أيضاً السلطنة الزرقاء وعاصمتها سنار. وتمتد من الشلال الثالث وحتى حدود إثيوبيا جنوباً ومن الصحراء الشرقية حتى كردفان غرباً . تتألف مملكة الفونج من عدة سلطنات ومشيخات خضع بعضها للفونج مباشرة وهى : مشيخة خشم البحر ، مملكة فازغلي ، مشيخة الحمدة ، مملكة بني عامر ، مملكة الحلنقة . وخضع لها البعض الآخر بواسطة العبدلاب وهى : مشيخة الشنابلة والمناصير وممالك الجموعية والجعليين والميرفاب والرباطاب والشايقية ودنقلا العجوز والخندق وأرقو[12].

5. العاصمة:

تنشأ عواصم الدول في أغلب الأحوال انطلاقا من منطقة صغيرة تعرف بالنواة حيث الظروف الطبيعية والحضارية الملائمة للحياة السياسية, ولكن في الأزمن القديمة كان موقع العاصمة غير ثابت لأن الطاقة الإدارية للحاكم صغيرة وصعبة، والأعباء الحكومية محدودة وكان الملك محاط بوزارته وحاشيته ويعيش متنقلاً من منطقة إلى أخرى داخل مملكته ووزراءه حاشيته تحمل السجلات والأختام.كانت عاصمة الفونج لامول ثم جبل مويه ثم بعد الاتفاق مع العبدلاب أسسوا مدينة سنار وجعلوها عاصمة لهم[13].

ساعد موقع سنار في وسط السودان وايحاطتها بمنطقة زراعة كبيره مطرية ومروية لتصبح منطقة جذب سكانى منذ القدم حتى صارت واحدة من أكثر مدن السودان نمواً وتنوعا. وتقع سنار في الحزام المطيرمن منطقة السافانا الغنية مما اكسبها موقعا استراتيجيا لانتاج المحصولات التى تعتمد على الامطار وتلك التى تروى من الانهار. تتميز منطقه سنار بصيف حار ممطر تصل درجات الحرارة فيه صيفا الى 41 درجة مئوية فما فوق ، وتقل درجة الحرارة الى حوالى 17 درجة مئوية في الشتاء مما جعل لها مناخا محتمل من قبل الانسان و الحيوان.

هنالك العديد من العوامل الجغرافية التى أدت لاختيار سنار العاصمة :

1. يعد الممر الرئيس للنقل في هذه الفترة نهر النيل فكانت مسالك الطرق البرية محاذية لنهر النيل وعبر رافديه ويبين لنا الكثير من المراجع التاريخية نشأة مدينة سنار في موقع تلتقي فيه طرق النقل جعلت منها محاور أساسية تمتد منها شرقاً وغرباً

وشمالاً وجنوباً فهي مركز تجاري وتلاقي للأفكار والثقافات لذلك إتسع إقليم مدينة سنار في العلاقات مع مدنها الداخلية والأقليمية كما ذكرت في كتب الرحالة اشتهرت سنار بالثروة والغنى كان التجار يأتونها من مصر والهند والحجاز عن طريق البحر وكان يرد إليها من دنقلا البلح ومن كردفان التبر والحديد والرقيق ومن فازوغلى والصعيد الذهب والعسل والجلود والنعال والسياط والريش والسمسم ومن سوق رأس الفيل بالحبشة الذهب والرقيق والبن والخيل والزياد والعسل وأساور العاج وغيرها من حلي النساء .اهم صادراتها التجارية الرقيق والذهب والعسل والأبنوس والجلود والنعال والسياط والخيل والزياد وسن الفيل والخرتيت،وأهم الصناعة الصاغة لصناعة الشفستي المعروف في مصر بالسناريوالحاكة لحياكة الداموروغيره منالمنسوجات القطنية(14).هذا يوضح قيمة العاصمة الإقتصادية الداخلية والعالمية بسبب موقعها الوسط الإستراتيجي.

2. تعتبر جزيرة سنار أكبر قاعدة زراعية جيدة.
3. تذخر جزيرة سنار ذات كثافة سكانية مرتفعة بسبب الهجرات العربية البدوية.

لذلك أصبحت مدينة سنار نواة قومية ينبعث منها الشعور الوطني القوي والانتماء إلى الدولة هي النواة التي تعمل الدولة على تحويلها إلى منطقه ذات أهمية سياسيه نظراً لأثرها السياسي والديني للدولة, هي الفلبالاقتصادي من حيث درجة تركز الأنشطة الاقتصادية ولها توجهها الاقتصادي والثقافي داخلياً وإقليمياً وخارجيا.

6. التجارة:

سنار مركز تجارى هام وتتردد القوافل التجارية بينها وبين القاهرة ودنقلا وبلاد النوبة والهند واثيوبيا ودارفوروبرنو وفزان وغيرهاكما وصفها كرمب (شبيكة:1964م:ص80), واشتهرت مملكة سنار بالثروة والغنى حيث كانت البضائع ترد إليها من جهات مختلفة، إضافة لذلك فى إطار تجارتها الداخلية عبر الطريق الغربى كانت تستورد من كردفان الذهب والرقيق والصمغ ، كما تدفقت إليها الذهب أيضاً من كادقلى مع الجلود والريش والصمغ ومن الحبشة استوردت الزباد والعسل والعاج ، لذلك تعتبر الذهب من أكبر صادرتها اضافة للرقيق والسن والريش والمنتجات الأخرى . وقد وصف الرحالة الإدريسى تجار سنار عبر الطريق الغربى الذى يمر ببلاد الزغاوة الى بلاد الغرب الأفريقى كما وصف التجار الذين يرتادون هذا الطريق وأسلوب تعاملهم ومعيشتهم ولباسهم (151 ما سهل حركة هؤلاء التجار عبر الطريق . ومما سهل حركة التواصل عبرالطريق الغربى الذي فروعه المتعددة ، عدم وجود عوائق تعوق حركة التواصل ، لذلك هاجر عدد كبير من التجار الجلابة من السودان النيلى الى الغرب فاستقروا في كوبية وكبكابية بسلطنة الفور ونمرو الجلابة بسلطنة وداي حيث تعتبر هذه المراكز من أكبر مراكز مراكز الجلابة في الغرب، ووصلت تجارتهم غرباً عبر هذه الطرق الى برنو وباقرمى وتمبكتو وولايات الهوساوماجاورها ، ومما ساعدهم على ذلك سهولة الحركة ورغد العيش ورواج التجارة(16). وقد مارس بعض هؤلاء

التجار صيد الرقيق سراً دون إذن من السلطات الحاكمة فوصلوا حتى النيجر ومجاهل إفريقيا ، حيث قوى حركة التجارة بين سكان غرب ووسط أفريقيا بسودان وادى النيل ، وتزوج عدد من التجار الجلابة فى المناطق التى عملوا فيها ونقلوا إليهم موروثاتهم وثقافاتهم وعاداتهم .

كان للطريق الغربي أهمية أقتصادية كبيرة علي سنار وما جاروها حيث تنقل تجارة ومنتجات بلاد الغرب الأفريقى من بلاد برنو وباقرمي ودارفور وكردفان إلى الشرق وتعود محملة بالمنتجات الشرقية التى تأتى من جزر الهند الشرقية من عطور وتوابل خرز وأنسجة ، كما قصد سنار قوافل من بلاد النوبة وأثيوبيا وذلك لموقعها الاستراتيجى التى تتوسط طرق القوافل القادمة من الشمال والشرق والجنوب والغرب [17]

هذا الطريق آمن وأقرب من الطرق الأخرى حيث تعود القوافل محملة بالمنتجات الشرقية الى بلاد الغرب الأفريقى ، وقد عملت التجارة على توثيق الصلات بين هذه البلاد ، كما عملت على نقل الثقافات والعادات والموروثات بينهما . وقد ذاع صيت دولة الفونج وقصدها العلماء ورجال الدين والرحالة الذين كتبوا عن سنار فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، فمن الرحالة الذين زاروا سنار الرحالة اليهودى (دايفيد روبينى) في العام 1522م وجان شارل بونس فى العام 1699م ، الذى عبر سنار قاصداً الحبشة ، وقد انبهر بحضارة سنار ورقيها وقد وصف الدكتور جان سنار وصفاً دقيقاً[18].

وبنهاية القرن الرابع عشر الميلادى ، تدفقت الهجرات العربية الى السودان من الشمال والغرب ، والذين هاجرون عبر طريق الغربي وصلت هجراتهم شرقا إلى السودان النيلى وكرفان ودارفور كما وصلت غربا حتى بلاد الغرب الأفريقى عند ما كانت مملكة كانم برنو الإسلامية في أوج عظمتها ومن اهم المركز التجارية على الطريق الغربي:

1. سنار:هي من أشهر مدن السوان الشرقي وأقدمها أسسها الفونج في العام 910هـ/1504م، وهي العاصمة المركزية وملتقى الطرق التجارية العالمية لانها تقع على الطريق الغربي وهي تبعد حوالي207 ميل جنوب الخرطوم .
2. شندي:مركز تجاري مهم لانها تقع على الطريق الغربي القادم من كرفان اي انها تستقبل التجارة القادمة من دارفور ووكردفان وبلاد الغرب الإفريقي كما تستقبل التجارة القادمة من الشرق(19) .
3. سواكن :ميناء تجاري على البحر الأحمرتسيطر عليها المجموعات البجوية وهي محطة انطلاقة القوافل من الشرق الى الغرب ومرسى السفن القادمة من جزر الهند والبلاد الشرقية واليمن وغب آسيا ، وقد اشتهرت سواكن بتجارة المعادن خاصة الذهب والفضة والنحاس[20]. هناك عدد من الأسباب أدت إلى انتعاش التجارية الداخلية والخارجية في الدولة السنارية ومن هذه الاسباب :

قيام نظام سياسي لا مركزي شمل مساحات واسعة ضمن حدود مملكتي علوة والمقرة مما أدى إلى تباين في الإنتاج.

ظهـور نظـام جديـد في ملكيـة الأرض يختلـف عـن النظـام الـذي كان قائمـاً في فـترة الممالـك النوبيـة السـابقة حيـث ظهـرت مجموعـات مستفيدة مـن زيـادة الإنتـاج مثـل الفلاحـين ومـلاك الأراضي الكبـيرة.

ظهـور التعامـل بالنقـود ولذلـك ازدهـرت وتوسـعت التجـارة بسـبب ظهـور النقـد مثـل (الذهـب، الفضـة ، الدمـور).

ظهـور طبقـات وفئـات جديـدة تمركـزت في أيديهـا ثـروات وفائـض انتـاج زراعـي ورعـوي مثـل السـلاطين ومشـايخ القبائـل وكبـار مـلاك الأراضي الزراعيـة والماشـية والأغنيـاء مـن مشـايخ الطـرق الصوفيـة والتجـار[21].

أسـهمت التجـارة الداخليـة والخارجيـة في زيـادة دخـل الدولـة السـنارية مـن الأمـوال والسـلع ، كـما أنهـا أسـهمت في انعـاش الاقتصـاد السـناري الـذي يعتمـد عـلى التجـارة والضرائـب بأنواعهـا المختلفـة ، كـما أنـه يمكـن القـول إن سـنار اسـتفادت مـن العمـل التجـاري وانتعـاش الأسـواق المحليـة في إيجـاد حالـة مـن الحـراك الداخـلي الـذي يعمـل عـلى تقويـة الدولـة مـن الناحيـة الماليـة ، ولأهميـة التجـارة نجـد أن ملـوك سـنار عملـوا عـلى اسـتتباب الأمـن الداخـلي بـين المـدن التجاريـة وتقديـم كل الدعـم للقوافـل التجاريـة لتصـل إلى الأسـواق المحـددة بـكل سـهولة ويـسر. ومـع تدفـق التجـار الوافديـن إلى الدولـة السـنارية عـبر البحـر الأحمـر نجـد أن سـواكن مثلـت دور الوسـيط الفاعـل في ربـط سـنار بمحيطهـا الاقليمـي والـدولي مـما سـاعد في اشـتهار سـنار بوصفهـا إسـلامية جاذبـة للسـياح ورجـال الديـن والباحثـين عـن الشـهرة والمـال. كان ملـوك سـنار يعلمـون أهميـة التجـارة ودورهـا الفاعـل في تحقيـق الاسـتقرار للدولـة وفي الوقـت نفسـه تعمـل عـلى رفاهيـة السـكان المحليـين مـن خـلال توفـير السـلع الضروريـة والمتطلبـات الحياتيـة في ذلـك العـصر .

الخاتمة:

قيـام سـلطنة الفونـج هـو الوقـت الحقيقـي الـذي بـدأ فيـه انتشـار الإسـلام في السـودان بصـورة اكبر مـن ذي قبـل ، وقـد تدفقـت الهجـرات العربيـة الى السـودان مـن مـصر بنهايـة الممالـك المسـيحية ، حيـث انـزاح السـتار وانفتـح البـاب عـلى مصراعيـه أمـام الهجـرات العربيـة، وقـد بـذل سـلاطين الفونـج جهـودا جبـارة لتمكـين الإسـلام يسـاعدهم في ذلـك مشـايخ العبـدلاب ومـن أهـم النتائـج التـي توصلـت اليهـا الورقـة:

- يعتبر الاسلام هو فكرة الدولة الرئيسة وقد لعب دورا كبيرا في نشأة المملكة وتطورها.
- أن منطقـة سـنار تعتـبر نـواة المملكـة السـنارية وهـي مركـز الثقـل الإداري والسـياس والاقتصـادي والحضـاري للدولـة ومنهـا انطلقـت الفكـرة الأساسـية لنشـوء عاصمـة الدولـة فيهـا مـما أدى الإقليـم دورا حيويـاً ملموسـاً في تماسـك الدولـة واسـتمراريتها.
- نشـأة مدينـة سـنار في موقـع تلتقـي فيـه طـرق النقـل جعلـت منهـا محـاور أساسـية تمتـد منهـا شرقـاً وغربـاً وشـمالاً وجنوبـاً فهـي مركـز تجـاري وتلاقـي للأفـكار والثقافـات لذلـك إتسـع إقليـم مدينـة سـنار في العلاقـات مـع مدنهـا الداخليـة والأقليميـة كـما ذكـرت في كتـب

الرحالة اشتهرت سنار بالثروة والغنى كان التجار يأتونها من مصر والهند والحجاز عن طريق البحر

- رغم ان اقتصاد سنار كان متنوعا الا ان الزراعة كانت تمثل المورد الاقتصادى الاول والذى حول السكان لحياة الاستقرار لممارسة تلك الحرفة بدلاً من الرعي.
- -اعتماد سنار على التجارة بصورة رئيسية مكنها من الأشراف على هذه الحرفة وتقديم الدعم اللازم لتطويرها .

التوصيات:

تشجيع البحوث والدراسات في مجال الجغرافية السياسية لكافة الحضارات القديمة للسودان في محاول لإثراءهذا الجانب من الدراسات الحضارية للوقوف على إيجابياتها وتدعيمها وعلى سلبيتها وكيفية تجنبها.

الهوامش:

(1) ابـو منقـا , الامـين(1996م) ، الاثـار العقائديـة لحركـة الشـيخ عثـمان بـن فوديـو في سـودان وادي النيـل ، بحـوث النـدوة العالميـة بجامعـة افريقيـا العالميـة ، منشـورات الجامعـة

(2) الفـلاتي, الطيـب عبدالرحيـم محمـد(1996م) ، الفوديـون ومقاومـة الاسـتعمار في غـرب أفريقيـا والسـودان ، النـدوة العالميـة ، جامعـة أفريقيـا.

(3) الحـاج ، تـاج الـسر عثـمان(2005م): لمحـات مـن تاريـخ سـلطنة الفونـج الاجتماعـي (1504-1823م)، مركـز محمـد عمـر بشـير ، للدراسـات السـودانية ، أم درمـان .

(4) بديـن , محمـد أحمـد(1996م) : الفلاتـة والفلانيـون في السـودان ، الأصـل والتاريخ ، مركز الدراسـات السـودانية ، القاهرة .ص5.

(5) بيتر،تايلور،كولـن فلنت(2002):الجغرافيـا السياسـية لعالمنـا المعـاصر، ترجمـة: عبـد السـلام رضوان،اسـحق عبيـد، سلسـة عـالم المعرفة،العدد٢٨٣،الجـزء الاول، ص 77.

(6) حسن،يوسـف فضل(2002):مقدمـة في تاريـخ المماليـك الاسـلامية في السـودان الشرقـي-1450 1821م،معهـد البحـوث والدراسـات الإسـلامية،ط2. ص 7.

(7) حـاج أحمـد , الأمـين العـوض(2017م): إدارة التنـوع فى مملكـة سـنار و بنـاء الوحـدة, ورقـة مؤتمـر سـنار عاصمـة الثقافـة, جامعـة الزعيـم الازهـرى. ص341.

(8) سعودي،محمد عبد الغني(2010): الجغرافية السياسية المعاصرة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

(9) أبوسـليم،محمد إبراهيـم (1992):بحـوث في تاريـخ السـودان،(الأراضي، العلـماء، بربر،عـلى الميرغنـي)، مطبعـة دار الجيـل، بـيروت. ص3.

(10) شبيكة، مكي (1964):مملكة الفونج الاسلامية ، محاضرات معهد الداسات العربية العالية، الخرطوم.

(11) شيقير، نعوم (1981): تاريخ السودان، تحقيق محمد إبراهيم أبو سليم ، دار الجيل بيروت. ص38.

(12) دفـع اللـه, علويـة عمـر احمـد(2017م): مراكـز الاشـعاع الدينـي في الدولـة السـنارية. , ورقـة مؤتمـر سـنار عاصمـة الثقافـة, جامعـة الزعيـم الازهـرى.

(13) صنـدل, حليمـة عبدالرحمن(2017م):الطريـق الغـربي وأثـرة عـلي سـلطنة الفونـج. , ورقـة مؤتمـر سـنار عاصمـة الثقافـة, جامعـة الزعيـم الازهـرى. ص5.

(14) طـه، فـدوى عبـد الرحمـن عـلي(2004): أسـتاذ الأجيـال عبـد الرحمـن عـلي1901- 1969م بـين التعليـم والسياسـة وأربجـي ،دار جامعـة الخرطـوم للنشر،الخرطـوم.

(15) ابـن ضيـف الله،محمـد النور(2009):كتـاب الطبقـات، تحقيـق الشـيخ إبراهيـم أحمـد صديق،الـدار السـودانية للكتـب، الخرطـوم.ص33.

(16) طه،فـدوى عبـد الرحمـن عـلي(2004): أسـتاذ الأجيـال عبـد الرحمـن عـلي1901- 1969م بـين التعليم والسياسـة وأربجـي،دار جامعـة الخرطـوم للنشر،الخرطوم.ص46.

(17) الادريـسي، ابـو عبدالله محمـد بـن محمـد بـن ادريـس(1958م): نزهـة المشـتاق في إخـترق الآفـاق، لبنـان ، بـيروت ،عـالم الكتـب للنـشر .ص88.

(18) كبـير، عبدالباقـي محمداحمد(2001م):رحلـة إلى وداي ودارفور،تحقيـق أ.د عبدالباقـي محمـد احمـد كبـير ،الخرطوم،شركـة مناكـب للنـشر. ص89.

(19) عيسى , خضر آدم(2010م) : تاريخ السودان الوسيط وآثاره ، دار جامعة الخرطوم للنشر، ص 113.

(20) القـدال , محمـد سـعيد(2002م) : تاريـخ السـودان الحديـث 1820ـــ1955م ، مركـز عبـد الكريـم ميرغنـي ، أم درمـان ،الطبعـة الثانيـة.ص38.